﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [النّحل: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

البيانُ لنوع ثالث مِن أنواع التَّهديدات الّتي هدَّدهمُ الله تعالى بها سَلَفًا

بعد أن توالتِ الآياتُ الكريمةُ، في الرَّدِّ على شُبُهات المُشركين، وأتْبَعتْ ذلك بذِكْر ألوانِ العذاب الّتي أعدَّها اللّهُ تعالى لهم، إن هم لم يرتدعوا، وأشارت إلى التَّعجيب مِن شأنهم، إذ هم لم يتّعظوا بحال مَن خَسَفَ به قبلَهم، ذَكَرَت هنا لونًا آخَرَ مِن ألوان عذابهم، فقال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، ففي هذه الآية بيانٌ لنوع ثالث مِن أنواع التَّهديدات، الّتي هدَّدهمُ اللّه تعالى بها[1]، وذلك بـ"أن يأخذَهم اللّهُ تعالى، أثناءَ تقلّبهم في معايشهم، واشتغالِهم بها في أسفارهم، ونحوِها مِنَ الأشغال المُلْهِيَة، فهم لا يُعْجِزون اللّهَ على أيّ حال كانوا"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأْخُذَهُمْ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ، قال الخَليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[3]، والإخْذُ بالكسر، الاسمُ، والأمر منه: خُذْ، وأصلُه اُؤْخُذْ، إلّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفًا[4]، والأخْذُ: تَناوُلُ الشَّيءِ باليَدِ، واستُعمِلَ مجازًا مَشهورًا في الاستيلاءِ، قال تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التَّوْبَة: 5]، وفي القَهْر نحو: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وفي التَّلقّي نحو: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، وفي الاحتِواءِ والإحاطَة، يُقالُ: أخَذَتْهُ الحُمَّى وأخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، وفي الإهلاكِ نحو: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقّة: 10][5]، وهو المرادُ هنا في الآية.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/ 181.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1948.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.

2) ﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾: أصلُ (قَلَبَ): يَدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، تقول: قَلَبْتُ الثَّوبَ قَلْبًا، والقَلَبُ: انقلابُ الشَّفَةِ، وهيَ قَلْباءُ، وصاحِبُها أَقْلَبُ، وقَلَبْتُ الشّيْءَ: كَبَبْتُهُ، وقَلَّبْتُهُ بيدي تَقْلِيبًا[1]، والقَلْبُ أيضًا: صَرْفُكَ إنسانًا، تَقلِبُه عن وجهه الَّذي يُريده، وقَلَّبَ الأُمورَ: بَحَثَها، ونَظَر في عَواقبها[2]، والتَّقَلُّبُ: التَّصرُّف، قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشُّعراء: 219]، ورَجُلٌ قُلَّبٌ حوَّلٌ: كثير التَّقلُّب والحِيَلَة[3]، والانقلابُ: مُطاوِعُ قَلَبَ، والأكثرُ أنْ يَكونَ تَغييرًا مِنَ الحالِ المُعتادَةِ إلى حالٍ غَريبَةٍ[4]، وقلَّب الجَمرَ: حرَّكه وأجّجَ لهيبَه، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: 42] كنايَةٌ عنِ النَّدم، وقلَّب اللّهُ اللَّيلَ والنَّهارَ: بدَّل بينهما، وغيَّر مِن حال إلى حال، قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [النور: 44][5]، والمقصود بالتَّقلُّب في الآية: الحركةُ إقبالًا وإدبارًا، والمرادُ: السَّعْي والتَّصرُّفُ في شؤون الحَياةِ المختلفة.

3) ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: أصلُ العَجْز: الضَّعْفُ، يُقال: عَجَزَ يَعْجِزُ، عَجْزًا ومَعْجَزَةً، أي: ضَعُفَ ولم يَقْدِرْ، فهو عاجِزٌ، والقولُ: "إنَّ العَجْزَ نَقيضُ الحَزْم" فمِنْ هَذا؛ لِأَنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ[6]، وهو أيضًا: التَّأخُّرُ عنِ الشَّيْءِ، وحصولُه عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤخَّرِه، وصار في التَّعارف اسمًا للقصور عن فِعل الشَّيء، وضِدُّهُ: القُدْرَةُ[7]، وفي التّنزيل: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [العنكبوت: 22] قال الفرّاء: كيف وصفهم بأنّهم لا يعجزون في الأرض ولا في السّماء، فالمعنى: ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا مَن في السّماءِ بمُعْجِز[8]، والمقصود بالعَجْز في الآية: هو الَّذي يَجعلُ طالبَ شَيءٍ عاجِزًا عن نَواله، والمُرادُ: لا يَمنَعُهُم مِنْ أخذِهِ إيّاهُم تَقَلُّبُهُم شَيءٌ، إذْ لا يُعْجِزُهُ اجتماعُهُم وتَعاوُنُهُم[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قلب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 51.
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجز).
(7) الرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عجز).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عجز).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 166.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّلويحُ بتنوّع الأحـــوالِ الّتي يقع فيها عذابُ الـلـــه، بـأهـلِ السّوء والشِّقاق

يقول الله تعالى: أو يُهلِكَ اللّهُ الكافرينَ بالعذابِ في حالِ سَفَرِهم وتصَرُّفِهم في مَعايشِهم وأشغالِهم، فلَيسوا بفائتينَ اللّهَ، ولا مُمتَنِعينَ عليه؛ فهُم في قَبضتِه، يُهلِكُهم متى شاء، ولا مَهرَبَ لهم[1]، ومفاده: "استقيموا على الطرّيقة، وإلّا آخذكم أخذَ عزيزٍ مُقتَدِر"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ استعارة الأخذ:

إبـــرازُ المعـنى في صـورة حيَّة مُتحرِّكة، مُؤثِّرةٍ رادعـــةٍ لأهـل الفساد

الأخْذُ في الأصل: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، والمُراد به هنا: القَهْرُ والإهلاكُ والتَّدمير، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقّة: 10]، وقولُه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾ [القمر: 42][3]، فالأخْذُ مُستعارٌ للإهلاك[4]، وفي الآية الكريمة استعارةٌ رشيقةٌ على جهة الاستعارة المَكنيَّة التَّبعيَّة، فقد صُرِّح فيها بلفظ المُشبّه، وكان لفظًا مُشتقًّا، وهو الفعل (أخذ)، حيث شبَّه اللّهُ تعالى العذابَ الشَّديدَ الّذي يقع على هؤلاء الكفّار بالخاطِف الّذي يأخذ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّه به، ورمزَ إليه بشيءٍ مِن لوازمه، وهو الأخذ، وهو تصوير عجيب، يُبرِزُ المعنى في صورة حيَّة مُتحرِّكة ملموسة مُشاهَدَةٍ مُؤثّرة، رادعةٍ لأهل الفساد والعِناد، وفي استعمال كلمة (الأخذ) دقّة عجيبة، توحي بالقوَّة، وهي ما يتلاءم مع المقام، إذِ المقامُ مقامَ تكذيبٍ، فما تُحْدِثُه هذه الكلمةُ يُثير في النَّفس أقصى درجاتِ الإحساس والشُّعور بالتَّعذيب، وقد حَسُنَتِ الاستعارة هُنا؛ لأنَّها وقعت موقِعَها، ونزلت موضِعَها، وهذا هو النَّظمُ القرآنيُّ يُصَوِّرُ فيُبْدِعُ، ويُعَبِّرُ فيُعْجِزُ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 233، والواحديّ، البسيط: 13/ 69، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 109.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4187.

(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/ 161.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 166.

دلالةُ حَذفِ فاعل ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾:

تنويع المعنى بحسب السّياق، أو المشهورِ مِنَ الاستعمال القرآنيّ

قولُه تعالى: ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾، أي: العذابُ أو اللّه تعالى، رُجِّح الأوَّلُ بالقُرب في الذِّكر، فإنَّه ذَكَرَ العذابَ قبلَه، في قوله: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، والثّاني بِكَثْرَةِ إسناد الأخذ إليه تعالى في القرآن العظيم، مع أنَّه جَلَّ شأنه هو الفاعلُ الحقيقيّ له[1]، وقد كَثُرت في القرآن نسبةُ الأخذ إليه.

فائدة حرف الجَرّ:

الظَّرفيَّة المجازيَّة، تكون بيانًا لحاصل المعنى

﴿فِي﴾ مِن قوله تعالى: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾، للظَّرفيَّة المَجازيَّة، أي: المُلابسة، وهي حالٌ مِنَ الضَّمير المنصوب في ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾[2]، وفيها بيانُ حاصلِ المعنى، إذِ الظَّرفُ مُتعلّقٌ بـ (يأخذ)، وحاصلُه ما ذُكِرَ[3]، والمعنى: "﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ أي: سعيهم في المعايش، واشتغالهم بها، ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أي: لا يعجزون ربَّهم على أي حال كانوا"[4]، وذِكْرُ الظّرفِ تذكيرٌ بقُدْرة اللّهِ عليه، فهو المحيط بخلقه وأحوالهم، ولا يُعْجِزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

سِرُّ استعمال المصدر الصّريح ﴿تَقَلُّبِهِمۡ﴾:

إفادةُ شمولِ وعمومِ الأحوال وتصاريفِها

التَّقلُّب: السَّعيُ في شؤون الحياة، مِن مُتاجرة ومعاملة، وسفر ومحادثة، والمَصْدر متعلِّقٌ بـ ﴿يَأۡخُذَهُمۡ﴾ أي: في وقت تقلّبهم، أو بمحذوفٍ حال، أي: ثابتين في تقلّبهم، والمعنى: يأخذَهم مُتقلِّبين، والمراد تقلُّبهم في أشغالهم حضرًا أو سفرًا، ليلًا أو نهارًا، ذهابًا أو رجوعًا، فإن كانوا في أسفارهم، فإنَّه تعالى قادرٌ على إهلاكهم في السَّفر، كما أنَّه قادرٌ على إهلاكهم في الحَضر، وهم لا يُعجِزون اللّه بسبب ضربِهم في البلاد البعيدة، بل يدركُهُمُ اللّه حيثُ كانوا، قال

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 166.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 283.
(4) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 11/ 283.

تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران: 196]، أو وقت انقلابهم إلى أهلهم للمبيت، أو تقلُّبهم في فُرُشهم، وهما وقتُ أمان[1]، وشبيه بهذه الآية، قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨﴾ [الأعراف: 97 - 98]، ويَحتمِل المعنى أيضًا: يأخذهم في حال ما ينقلبون في قضايا أفكارهم، فيحول الله بينَهم وبين إتمام تلك الحِيل قَسْرًا، كما قال: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾ [يس: 66]، وحَملُ لفظ التَّقلُّب على هذا المعنى مأخوذٌ من قوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ [التَّوبة: 48]، فجميعُ ما يتقلَّبون فيه، فما هم بسابقين الله ولا فائتيه[2].

دلالة الفاء:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، قيل: لتعليل الأخذ، أو لترتيب عدم الإعجاز عليه، دلالةً على شِدّته وفظاعته، حسبما قال ﷺ: "إنّ الله تعالى ليُملِي للظّالم، حتّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْه"[3].

تعليلُ الأخذ بكونهم غيرَ معجزين الله، لونٌ مِنَ التّدليل على شِدَّتِهِ وفظاعته

سرّ دخول حرف النَّفي (ما) على الجملة الاسميَّة:

قوله تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، وفيه أنَّه لمّا كان أخذه لهم حالةَ التَّقلبِ والتَّحرّكِ مَظِنَّةً لفرارهم وهُروبهم؛ دخل حرفُ النَّفي، فنفى ذلك السَّببَ المترتّبَ على تَقَلُّبهم، أي: فما يكون تقلبُّهم سَببًا في تعجيزهم[4].

نفيُ السَّببِ المُترتِّب على تَقَلُّبهم

بلاغةُ التَّذييل بالجملة الاسميَّة:

قال تعالى: ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: بمُمتنعين أو فائتين بالهَرب والفِرار، على ما يوهِمُه حالُ التَّقلُّبِ والسَّيْرِ، تذييلًا على أخذ

بيانُ الدَّلالةِ على دوام النَّفي، لا على نَفي الدَّوام

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/ 396، والسَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 275.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 212، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 535.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 389، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (4409)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2583)، عن أبي موسى الأشعري ﷺ.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 21.

المشركين والمعاندين في تقلّبهم، وإيرادُ الجملةِ الاسميَّة؛ للدَّلالة على دوام النَّفي، لا على نَفي الدَّوام[1]، فممّا اشتملت عليه هذه الجملةُ الكريمةُ مِن بديع البلاغة، أنَّها عبَّرت على المعنى المُراد، باستعمال الجملة الاسميَّة الدّالّة على الدَّوام والثُّبوت والاستقرار.

دلالةُ اسمِ الفاعل المجموع:

المُعْجِز: هو الّذي لا يمَكِّنك مِن أنْ تغلبَه، وعبّر النّظمُ الكريمُ باسم الفاعل المجموع؛ للدّلالة على أنّهم مهما بلغوا مِنَ البطش والمُغالبة ما بلغوا، بمجموعهم وجُموعهم، فلن يُعجِزوا اللّهَ تعالى، ولن يستطيعوا الإفلاتَ مِن عذابه؛ لأنّهم مهما بَيَّتوا، فتبييتُهم وكَيْدُهم عند الله[2]، وفي هذا تسليَةٌ للمَظلوم، ووعيدٌ للظّالم، لئلّا يَغترَ بإمهاله[3].

إبـــــراز وعـيـدِ الـظّـالـمِ مهما بـلـغـت قـوّتـه وتسليَةُ المظلومِ مهما بلغَ ضَعْفُه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذُ والإهلاكُ:

الأخذُ مَصْدرُ أخَذْتُ بيدَيَّ، ويُستعار فيقال: أخذَه بلسانه، إذا تَكَلَّمَ فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذابِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر: 73]، وأصلُه في العربيَّة: حَوْزُ الشَّيء وجَبْيُهُ وجَمعُهُ[4]، وقال بعضُهم: الأخذ: حوز الشّيء، وقال آخرون: هو في الأصل بمعنى القَهْر والغَلَبة، واشتُهر في الإهلاك والاستئصال، ومِنَ المجاز: الأخذ: الإيقاع بالشّخص، أو بمعنى العقوبة[5].

الأخـــذ أعـــمُّ متـعـلّـقًـا وآلـةً مِـنَ الإهـلاك، واسـتـخـدامُـه في القرآن بليغٌ ودالٌّ على مُراده

أمّا الإهلاك: فهو أخصّ مِنَ الأخذ؛ لأنَّه يكون بِنَقْضِ البِنْيَةِ، وإبطال الحاسَّةِ، وما يجوز أن يَصِلَ مَعَهُ اللَّذَّةُ والمَنْفَعَةُ[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 117.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 13/ 7967.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 39.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أخذ).
(6) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 58، والمصطفويُّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 1/ 271.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»